MONSIEUR SOMMEIL

CLAUDE AVELINE

المسيو سومى

إلى الدكتور جاك هرتز

كان ذلك فى مساء يوم اثنين ، وكانت الساعة حوالى الحادية عشرة وكنت على أهبة النوم ، بعد أن أتممت صفحاتى الثمانى اليومية ، ورتبت مذكراتى ، وأعدت كتبى إلى رفها ، ومررت بخرقة الصوف الصغيرة على مكتبى ، عند ما رن جرس التليفون ، فعلمت من غير أن أحتاج إلى رفع السماعة أن العيادة تطلبنى ، وإلا فمن غير العيادة ؟ . . وفعلا سمعت صوت كبيرة الممرضات تقول : « أسعد الله مساءك يا سيدى ، مدام مرجريت ، سوف تعرض علينا حالة عاجلة بعد نصف ساعة . » لم يكن أحد يسألنى عن هذا الأمر أهو يوافقنى أم لا يوافقنى ، فقد كان دومين يعتبرنى دائماً فى العمل « الشخص الذى يستطيع الاعتماد عليه » . وعلى أية حال كانت هذه الشهرة تكلفنى شهرة أخرى ، مع ما تستوجب من تحفظات قليلة ، وهى شهرتى بأنى أعزب شيخ ورجل به هوس — لنمر بذلك مر الكرام .

كان الرجل قد دهمته فى ميدان دنفير—روشرو سيارة ألمانية . إن أولئك القوم يقودون كالمجانين ، وقد حمله بعض رجال الشرطة وأتوا به إلينا على خطوات من مكان الحادث : فقد كان نقله إلى إحدى المستشفيات أمراً شاقاً لديهم ؛ إذ لم يكن من السهل العثور على عربة إسعاف فى تلك الأيام المعقدة . وكان دومين موجوداً هناك ففحص الرجل . وبينما كنا نتأهب أطلعنى على نتيجة تشخيصه ؛ فاذا بكسور مفتحة فى الأعضاء والحوض ، ورضوض داخلية . ومعنى ذلك بايجاز القول أن الأمر خارج عن اختصاص الطب .

---

* كتبت هذه القصة خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

معنى كلمة Sommeil : النوم .

وكان المصاب ملقى على النضد ، خائر القوى على أثر حقنتين ، غير أن نظرته كانت متنبهة قلقة . له وجه فتى جميل الصورة ؛ قد كان ممكناً أن يكون ابنى . وعند ما سألته مدام مرجريت سؤالها المعهود : « من تريد أن نخطر بالحادث ؟ » أجاب : « لا تخطروا أحداً ! ليس لى أحد . » ووجه دومين إليه كلماته المألوفة بصوته القوى الحنون الذى كان دائما يبعث الابتسامة على شفاه المرضى . ثم قدمنى بطبيعة الحال كما اعتاد أن يقدمنى : « إنك ترى أمامك أحدث صورة مجسمة للاله مورفى ، المسيو سومى ! أما ترى أنه اسم جميل ؟ إنه مدين لى أنا به . ومسيو سومى هو الذى سيرسلك الآن فى نعيم الأحلام ! » ظل بومييه بادى الخوف ، بل بدا لى أنه ينظر إلى بقلق شديد ، نسيت أن أذكر أن المصاب كان يدعى بومييه ، مارسيل بومييه — حسب بطاقة تحقيق الشخصية التى عثر رجال الشرطة عليها فى حافظته ، وقد صرح أحدهم أن بومييه يقطن فى مكان ما من مقاطعة اللورين حيث نشبت معركة لم يبق على أثرها شئ يذكر من تلك القرية . لم أكن أعلم شيئاً حينذاك عن الأوراق الزائفة . بل إذا أردت أن أكون صريحاً كل الصراحة فلأقل إننى لم أكن أعرف شيئاً عن أى شئ على وجه الاطلاق ؛ فأنا لم أهتم قط بشؤون العالم . إن هناك قوماً اخصائيين فى إدارة السياسة والحرب . . . الخ ، وكذلك فى إفساد العلاقات بين الشعوب . كنت أمقت أشد المقت وجود الألمان بيننا ؛ لأننى لا أحب علم الجرمان ولا وحشيتهم ، وبالأخص بعد مجىء هتلر الذى لم يكن سوى حاكم مصاب بالصرع — هذا رأيى فيه — ومع ذلك فان وجود الألمان قد أشبعنى أكثر من أى وقت مضى ، لا من لذة الأحلام بل من متعة الدراسة . فمنذ سنوات لا أستطيع ذكر عددها ، بدأت بحثاً عن التخدير هو فى عقيدتى بحث له قيمته . ومنذ يوليو ٤٠ وأنا أكتب كل يوم ثمانى صفحات بدلا من أربع . ولا شك أن مثل هذه الظروف جعلت من الصعب علىّ أن أبرم كل البرم بالحياة ، غير أنى أعترف كذلك أننى لم أكن لأفخر كل الفخر بمثل تلك الحالة النفسية .

تأهبت إذن لتنويم بومييه بعد أن ربتّ على كتفه وأنا أتمتم شيئا كقولى : « سينقضى كل شئ على خير ما يرام . إنك تعلم . . . » وإنى أسائل نفسى اليوم ماذا كان فى استطاعته أن يجد فى تلك العبارة أو فى لهجتها . لقد أجاب

فى شئ من الحماسة : « إننى واثق يا دكتور ، شكرا يا دكتور . » وأغلق عينيه ثم فتحهما ، غير أنه حينما كنت أتأهب لوضع القناع ، بدت على وجهه مظاهر الجنون التام ، وحاول أن يرفع رأسه . سألته : « ألديك ما تريد أن تصرح به ؟ » فألقى بنظرة على دومين ثم على الممرضات ، وعاد فخفض رأسه وتمتم قائلا : « كلا ! لا شئ . »

استغرقت العملية أكثر من ساعة ، كان بومبيه مضطربا ، وكان نبضه يثير القلق ، فنزعت القناع بقدر ما استطعت . كان يئن ، وكان يسرف فى الحديث ، بطريقة مفككة غالبا . حتى اللحظة التى ارتسمت فيها على شفتيه فى سكون عبارة ، كررها مرات عدة ، وقد استطعت أن أتبين ما يأتى : « فى يوم ١٢ الساعة الثالثة فى مقهى سان جرمان ، يوم ١٢ الساعة الثالثة فى مقهى سان جيرمان .. »

لم يكن ذلك أول موعد أسمعه فى تلك الحالات ؛ فقد خصصت فصلا كاملا عن هذا الموضوع فى أول الجزء الثانى من كتابى . فقد أظهر المرضى تقريبا دائما إقبالا ولطفا كلما كنت أبيح لنفسى باسم العلم توجيه الأسئلة لهم أثناء إقامتهم فى العيادة . أقصد الأسئلة التى تتميز بشئ من الندرة والابتكار والتى ربما كان من شأنها أن تجلو ناحية من نواحى الآثار الثانوية لمختلف المخدرات وبالأخص تلك التى كان لى فضل تركيبها بنفسى . غير أنى اعتبرت موعد بومبيه من المظاهر العادية جدا ومن أكثرها تفاهة إلى حد أنى نسيته بمجرد عودتى إلى منزلى .

وفى يوم الثلاثاء التالى أخبرتنى مدام مرجريت أن مريضنا قضى ليلة عسيرة . وقد قلق دومين لذلك ، فصحبته عند ذهابه لرؤيته . كان المسكين يتصبب عرقا من تأثير الحمى ، وهو يختنق ويهذى . وأبلغتنا الممرضة المختصة بأن بومبيه قد تمتم مرات عدة كما لو كان يصدر أمرا : « حذار إن فى الفناء وقع أقدام . » وكذلك : « يجب ألا تذهبوا إن فى الأمر شركا ! » فقال دومين وهو خارج : « إذا لم تهبط الحرارة غدا اعتبر الفتى هالكا . »

وفى صباح اليوم التالى كان الفتى أكثر من « هالك » كان ميتا .
وقال لى دومين : « لن أعدل عن تفكيرى بأن هذا الفتى ينتمى إلى حركة المقاومة ، وأنه واحد من أولئك الحالمين الذين يعتقدون فى المعجزات ! أليس

ذلك رأيك يا سومى ؟ إنهم يتحمسون بقدر ما يستطيعون ، ويتآمرون . . . ثم تدهمهم عربة تمزق أوصالهم فاذا بأسورهم الصغيرة كلها يقضى عليها . . . » ثم نظر إلىّ دومين شزراً (إنى أتذكر ذلك تماما) : «أترى لم يذكر لك شيئا ؟ » فأجبت بصدق و إخلاص أن لا . وعلى أية حال لم يكن دومين يتمتع بشهرة طيبة فيما يتعلق بمصائبنا . وكانوا يتحدثون فى العيادة — وقد تبينت ذلك بنفسى — أن دومين يفخر بكونه رجلا « واقعيا » ، وأنه يتحدث بغير كراهية عن الألمان . ولو كان بوسييه صرح لى بشئ ، لكتمته فى نفسى . وفيما كنت أفكر فى ذلك ، استكشفت بغتة أنه ربما أطلعنى على سر دون أن يريد : « يوم ١٢ الساعة الثالثة فى مقهى سان جرمان . »

أخذت أدفع عن نفسى ذلك الافتراض . فقد كنت دائما أمقت كل شئ معقد . إن موعدا كهذا لا يمكن أن يتعلق إلا بذكرى واقعة مرت بخاطر بوسييه أثناء نومه . أو هو هذيان لا صلة له بالواقع . أو إذا كان موعدا حقيقيا فربما كان مع امرأة أو قريب أو عميل أو صديق . وقد اعترفت فيما بينى وبين نفسى أن من المناسب حقا فى تلك الحالة أن أذهب بنفسى إلى هذا الموعد وأن أبلغ الشخص أو الأشخاص الذين ينتظرون بوسييه . وكان يوم ١٢ يوافق يوم أحد ، الأحد التالى . كل ذلك كان يمنعنى أن أخلط المقاومة بهذا الحادث التعيس .

ولكن لا بد من القول إن عقلى ، عقلى الطيب العزيز ، الذى قادنى حتى الخمسين من غير ما تعثر ، قد أبى فجاءة إلا أن يخذلنى . دهشت لذلك غاية الدهش . فقد تعذر على أن أشتغل فى مؤلفى مساء يوم الأربعاء ذلك ، أو يوم الخميس أيضا ، أو الجمعة . . . وفى أثناء النهار كنت أمارس عملى وأنا أفكر فى شئ يختلف عنه كل الاختلاف ، ولم يكن ليتغير : المقاومة السرية و « يوم ١٢ الساعة الثالثة فى مقهى سان جرمان » . ولما كان لى نصيب من التخيل بالرغم من العقل والعلم ، فقد تصورت مشاهد محزنة تمر أمامى شبيهة ببعض اللوحات التى كانت دائما تترك أثرا فى نفسى . ورأيت رجالا يرتدون معاطف قاتمة يتسللون إلى جانب الحيطان ، وقد جردوا سيوفهم ، ورأيت جنودا من الألمان يحاصرون مقهى بخوذاتهم المدببة — نعم ! فى حين أنى كنت أقابلهم كل يوم وعلى رأسهم الطاقية أو القبعة ذات الحافة المفلطحة

(كاسكيت) . وتصورت بومبيه حيا لأراه بعد ذلك يسقط مرة أخرى وقد اخترقه الرصاص . يوم ١٢ الساعة الثالثة : لم لا تكون الساعة الثالثة صباحا؟ مؤاسرة فى جنح الليل بعد وقف المرور وإطفاء الأنوار ، تحت ضوء القمر والسحاب . وفجاءة وجدت نفسى أستشير يومية البريد المعلقة فى مكتبى لأرى هل ليلة الأحد ليلة مقمرة . إنها بالفعل ليست مقمرة . وقد جعلنى هذا الايضاح الدقيق الذى لا جدال فيه أثوب إلى رشدى . ولكنه لم يعد إلى الهدوء . فظللت مقتنعاً بأن المقاومة لم تكن غريبة على مارسيل بومبيه الذى كان يتمتم فى هذيانه : « لا يجب الذهاب إنه شرك . »

كنت أحدث نفسى : «يا أدريان ما شأنك بكل ذلك؟ إنك طبيب تخدم بلدك بطريقتك أى بالعمل على إنقاذ حياة بعض مواطنيك . لا تملك حق المجازفة بحياتك . لقد بدأت فى كتابة مؤلف قد يكسب فرنسا شرفاً فى مادة اختصاصه إذا أنجزته على الوجه الأكمل . إن الحرب والاحتلال والأزمة البغيضة التى تجتاح العالم ، كل ذلك ليس لحسن الحظ إلا أمراً موقوتاً ! إن العلماء لا يعرفون إلا ما هو خالد ونهائى . اترك للشبان من أمثال بومبيه المسكين المخاطرات ومجد محاربة الأعداء إذا ما توافرت لهم الوسائل . فلكل عمله . »

كان ذلك دليلا على أنى رجعت إلى عقلى . وما فتئت أرد نفسى عن الصعاب ليل نهار ، وبلا انقطاع . وقد عرف مسيو سومى السهاد كما لم يعرفه من قبل ؛ فقد كنت أنام دائماً كالطفل . وأخذت أكرر فيما بينى وبين نفسى : « لا يجب الذهاب ، إنه شرك . » وبطبيعة الحال لم يكن عندى من الأسباب ما يحملنى على الشك فى وجود أية صلة بين تلك العبارة والموعد . ولكن السبب الذى كان يجب أن يحملنى على تأكيد عكس ذلك ، كان يفتقر إلى الكثير من القوة بحيث لا يجعلنى أظن أن بومبيه ربما كان يفكر فى تحذير أصدقائه : « بالأخص لا تذهبوا يوم ١٢ فى الساعة الثالثة إلى مقهى سان جرمان ! » أين أعثر بأولئك التاعسين ؟ فى باريس ، فى الأقاليم ، فى الناحية الأخرى من خط الحدود ؟ من الممكن أن يكون فى المقاومة رجال يستطيعون أن يعثروا على أصدقاء بومبيه بوساطة علامات خفية ، وملاحظات سرية . تذكرت أنه أغلق عينيه ثم فتحهما بعد أن قال لى : « شكراً يا دكتور » . فلو كنت من صحبه فلعلى كنت أدركت الطريقة التى يجب أن أسلكها . ولا ريب أن خلجة

عين مهما كانت بطيئة كتلك ، لم تكن واضحة المرمى كل الوضوح لجاهل مثلى. وفى مساء الخميس بعد أن تناولت بغير اهتمام طعامى البارد البسيط الذى تعده لى خادمى كل صباح ، قررت أن الوقت قد حان فعلا لأن أخرج بنتيجة . فأكدت لنفسى للمرة الأخيرة أنى لست بأية حال من المتآمرين ، وأنى لا بد أن أمحو فى الحال من ذاكرتى بومبيه وموعده الطارئ ، وأن أعود إلى عملى . وقد عدت إليه فى التو . فكتبت فى تلك الليلة من الصفحات لا ثمانى بل عشراً .

وفى الغد — يوم الأحد — منذ الساعة التاسعة كنت فى طريق سان جرمان . وليصدقنى من يصدق : لقد كانت دهشتى عظيمة . إنى أقيم منذ خمس وعشرين سنة فى شارع بريزن بالقرب من طريق أورليان على بعد عشر دقائق بل أقل من العيادة . وكنت فى تروضى يوم الأحد أصل حتى متنزه مونسورى ، فأنا وإن كنت أسكن المدينة من زمن قديم ، أحب الطبيعة والخضرة والأشجار التى تريحنى قليلا وفى كل شئ من مخدراتى العزيزة . فى ذلك ، ذلك الأحد ، ١٢ — وبدون أية فكرة مبيتة ، إنى أقسم على ذلك — عزمت على أن أغير مرة أسباب متعتى ، وأن أسلك طريق راسباى الذى يضارع أى متنزه . هبت فكرة الموعد فى رأسى ، ولكن بأية قوة ! فى الوقت الذى وصلت فيه إلى شارع جرينيل . وإن الذى زاد من ذهولى ، أننى عند ما ولجت طريق سان جرمان ، لم يكن بى حاجة إلى أن أسلكه . وكان أول متجر أبصرت به عن يسارى ، فى ركن من شارع دى باك ، وكان مفتوحا على مصراعيه ، فى حين كان كل ما حوله من متاجر يختفى وراء الستائر أو خلف القضبان الحديدية . كان ذلك المتجر هو مقهى سان جرمان . وهو مقهى متوسط الاتساع ، وكان حينذاك خالياً ، والمقاعد مكدسة فوق النضد ، وكان الندل يغسل المقهى بمنشفة مطوحاً يديه ، وقد ارتدى صدرية سوداء وشمر عن ذراعيه .

أخذ قلبى يخفق بقوة مزعجة ، لم يكن لى عهد بها منذ أيام البورصة والسباق الغابرة . تنكبت طريقى وأنا أجر أذيال الفرار كاللص ، مع اجتنابى العودة إلى الخلف حتى لا ألفت نظر أحد . فالطريق وإن كان خالياً لا يمنع أن يكون فى النوافذ عيوناً راصدة ! عدت فسلكت طريق سان جرمان دى برى ثم شارع رين ثم محطة مونبارناس ثم طريق مين . غير أنى قبل أن أصل إلى

شارع بريزن غيرت رأيى . وسرعان ما تثاقلت خطاى ، فخجلت من نفسى . لقد كنت جنديا ، مساعد جراح فى حرب ١٤—١٨ وكنت غالباً فى أكثر مراكز الاسعاف قرباً من الميدان ، لم يحدث أن منعنى إلقاء القنابل أن أنام أو أن أنوم غيرى . ما معنى هذا الذعر الراهن ؟ عند صعودى الدرج قلت فى نفسى : « إذا بقيت على هذا الخوف ، فستعود إلى هناك بعد ظهر اليوم ، أنت تعلم ! ربما كان ذلك حماقة منك ، وربما أصبت بما لا يرضيك ولكنك سوف تعود . »

ومن عادتى أيضاً يوم الأحد أن أتناول الغداء فى مطعم صغير فى الحى . حاولت أن أقرأ وأنا آكل . ولكن الذهن كان شارداً والقلب يهجس مضطرباً ، وقد تظاهرت بجهل تلك الحالة مدة الغداء كله . ولكن عند ما دفعت حسابى ، لم أتمالك أن نقرت على المائدة وقلت فى نفسى : « بما أن الأمر كذلك فلتذهب » . لم يكن يوجد شئ يستطيع بعد ذلك أن يغير عزمى . وإنى أؤكد وأشهد أنه لم يكن لبومييه أو للمقاومة أو للموعد أو لأى شئ آخر أثر فما عقدت من عزم . لم أرض أن أقاسى ما كان يسمه زملائى فى ميدان القتال : « رعدة العجائز » .

عدت إلى منزلى لأرتدى سترة السهرة السوداء . وفى الساعة الثالثة إلا عشر دقائق كنت مرة ثانية فى طريق سان جرمان أمام المقهى . ولكن هذه المرة كان يفصلنى عنه عرض الطريق كله . كان بعض المتنزهين يسيرون متهادين ، وكان الجو جميلا . وكان الناظر يستطيع أن يميز زبونين أو ثلاثة زبائن من خلف الزجاج . أكان أولئك أصدقاء أم أعداء مارسيل بومييه ؟ وحزمت أمرى على عبور الطريق .

عند ما أفكر فى ذلك الآن ، أعترف بأن هذه القصة غريبة . كان يوجد فى المقهى أولا : سيدة بمفردها فى مقتبل العمر وهى غاية فى الأناقة ، من سيدات المجتمع ، كان يبدو عليها أنها تنتظر أحدا . ثانيا : شخصان يلعبان الشطرنج ومعهما ثالث جلس يتتبع اللعب ، فى مقتبل العمر أيضا ، وكلهم غارقون فى التفكير . ثالثا : رجل جدى المظهر فى مثل سنى ومظهرى كان يطالع فى مجلة لم أستطع أن أتميز عنوانها . وكان الندل هو نفسه الذى رأيته فى الصباح ولكنه الآن يرتدى سترة بيضاء . كانت السيدة الجميلة تحسى نبيذا مصفى فى قرارة فنجان حسب عادات العصر . وكان اللاعبون الثلاثة

يحتسون نبيذا مصفى ، وكان معاصرى يحتسى نبيذا مصفى ، فطلبت نبيذا مصفى وفتحت جريدة كنت تعمدت أخذها . وتمشيا مع الطريقة الفنية الصالحة التى يسلكها رجال البوليس أو الجواسيس ، تركت نظرى يتسرب من فوق الصحيفة المبسوطة ، وكنت قد اخترت لجلوسى المقعدالأخير . وكان أحد اللاعبين يجلس على هذا المقعد نفسه . وكانت السيدة الشابة والرجل المسن يجلسان إلى نضدين أحدهما قريب من الآخر ، ووجهاهما متجهان نحوى . ونظرت إلى ساعتى من خلف الجريدة ، كانت الساعة الثالثة تماما .

لن أحاول أن أرسم صورة لكل الافتراضات التى أثارها فىّ انتباهى المتحفز . كانت هذه الافتراضات تتصادم و يهدم بعضها بعضا ثم تستيقظ لتتقابل من جديد فيما بينها . وقد بدأت أشعر بالضيق من هدوء هذا المقهى وسكونه . ورأيت نفسى غريبا لرغبتى فى رفض الأفكار التى كانت تتوارد على خاطرى . وإذ كان لا يوجد إلا شخص واحد يبدو عليه أنه ينتظر أحدا ، فلا بد أنه هو المقصود بالموعد . فالموعد إذن كان موعد غرام . لم تكن مهمتى إذن خطيرة ، بل أصبحت شاقة . وبينما كنت أفكر فى الطريقة التى بها أقترب من السيدة الشابة من غير أن تظن أننى أريد بها أمرا سافلا ومن غير أن أسترعى انتباه الزبائن الآخرين ، إذا بفتى يبدو من الخارج ويندفع نحو السيدة ، ويضمها بين ذراعيه ، ثم يتشاجران فى صوت منخفض . وإنى وإن كنت أعزب مسنا فقد مارست الحياة . وانسحب الاثنان وهما على أشدما يكونان من العناق . وتنهد الرجل المسن وهو يطوى بلته ، وتبادل بعض العبارات مع الندل ، ودفع ثمن مشروبه ، ثم نهض وانصرف . هل كان علىّ أن أتبعه ؟ بقيت فى مكانى . وقد تأثرت من جمود اللاعبين الثلاثة وعدم اهتمامهم ، لا أدرى لماذا وبالأخص جمود الأشقر الطويل القامة الذى كان يتتبع اللعب ، والذى كان يبدو مجذوبا برقعة الشطرنج مع أنه لم يكن يجرى عليها شئ ذو أهمية تذكر . لعله كان من شمال فرنسا ، بلجيكا ، سكندينافيا ، ألمانيا . وكان الأخران أسمرا اللون يميلان إلى النحافة وليس فيهما ما يسترعى الانتباه .

ربما كان اختبارى لهم مصحوبا بنظرة فيها كثير من الالحاح والامعان لم أفكر فى كبحها . أو ربما كانوا هم أحسوا بشئ من حب الاستطلاع نحوى . رفع جارى فى المقعد عينيه ووجههما إلىّ ، كانتا عينين على سواد يبعث الخوف ،

لا يعبران عن شئ ، ولا ينمان عن أية عاطفة من أى نوع ، لا يشع منهما غير بريقهما ، كانتا عينين غريبتين . شعرت بنفسى أبتسم ببلاهة (وكنت لا أزال محتفظاً بالجريدة مبسوطة أمامى من غير أن أشعر) ، ثم إذا بى أسمع صوتى يرتفع ويسأل ، وأنا أحس بشعيراتى القليلة تنتصب فى رأسى : « هل تنتظر أحدا ؟ »

نظر إلى زميله لاعب الشطرنج ، ثم عاد يتطلع إلىّ كما لو كان يفحص مخبولا وقال : « هل يبدو علينا ذلك ؟ »

رأيت أن من الخير أن أخفض جريدتى . كان الاثنان الآخران يرمقاننى هما أيضا ، اللاعب الثانى يحدقنى بالذهول نفسه . أما الأشقر فكانت نظرته تنم عن عدم المبالاة التامة . اضطررت أن أتنفس بشئ من العمق ثم أجبت: « أطلب المعذرة يا سادتى . أنا الذى أنتظر شخصا . أنتظر شخصا عنده موعد هنا اليوم ١٢ فى الساعة الثالثة مع رجل يدعى مارسيل بومبيه ! »

لم تتحرك لهم ساكنة ، بل كان وجومهم عظيما وسكونهم شديدا إلى درجة أنى تأكدت فجاءة أنى لم أخطىء ، وفى الوقت نفسه كانت الرعدة التى سرت فى رأسى منذ لحظة ، قد تضاعفت . ولكن لم يكن أمامى مجال للاختيار . لو أن أولئك الرجال كانوا أعداء ، فأملى الوحيد فى الخلاص منهم هو أن أروى لهم قصتى كاملة صادقة . . . قلت من غير أن أنظر إلى أحد منهم . « يا سادتى ، إنى لا أعرف من أنتم ! ولست أدرى أتعرفون أنتم مسيو بومبيه أم لا تعرفونه ، وهل أنتم الذين كانوا على موعد معه أو لستم إياهم ، فذلك ليس من شأنى فى شئ ، وأنا بالأخص لا أريد أن أعلم شيئا ! أنا الدكتور أدريان أ . . . عنوانى ١٥ شارع بريزن ، إخصائى فى التخدير . وهبت حياتى كلها للعلم . ليس لى مشاغل إلا إسعاف مواطنى من أى الجهات أتوا وأيا كانوا ؛ تأكدوا أنى لولا ذلك لما كنت الآن هنا . فى يوم الاثنين الماضى حوالى الساعة الحادية عشرة مساء ، حضر رجال الشرطة إلى العيادة التى أنتمى إليها يحملون رجلا صدمته سيارة ، ويدعى مارسيل بومبيه . وكانت حالته يرثى لها . فأجريت له عملية فى الحال ، أجراها له زميلى الكبير الدكتور دومين المدرس بكلية الطب والذى أتشرف بمساعدته منذ نحو عشرين سنة ، والذى أدين له باسم مسيو سومى . وهكذا ترون علاقتى به ! أنا إذن

الذى نوّم مسيو بومبيه . وأثناء عملية التنويم ، تمتم كالمتكلم فى حلم :« يوم ١٢ الساعة الثالثة فى مقهى سان جرمان » . لم يستعد وعيه ، ولسوء الحظ توفى ليلة الأربعاء . لست أعرف أكثر من ذلك . فى استطاعتكم أن تتحققوا من كل تلك الوقائع عند الأستاذ دومين ، وفى إدارة العيادة التى فى شارع دنفير روشرو رقم ٨٥ مكرر .

« أما العبارة التى تلفظ بها مسيو بومبيه فكنت الوحيد الذى سمعها لوجودى عند رأس المصاب . لم أبح لنفسى أن أنقلها إلى كائن من كان لأننى افترضت أنه موعد غرامى ، فالحب له المكانة الأولى دائماً فى النوم الصناعى . غير أنى وجدت من واجبى أن أحمل بنفسى إلى هنا النبأ الأليم ، فقد صرح مسيو بومبيه أنه من غير أسرة وأن منزله قائم فى المنصفة الحرام . ذلكم يا سادتى كل ما كنت أريد أن أقول . »

وسحبت أطراف أكمامى إشارة إلى انتهاء الحديث . ولولا قشعريرة الرأس التى جعلت منظر شعرى يرثى له أثناء حديثى القصير والتى ما كانت لتختفى ، لشعرت براحة كبيرة . ألقيت نظرة سريعة إلى رفاقى فاذا بمظهرهم يبدو كما كان فى اللحظة الأولى . وأخيراً قال اللاعب الثانى : « مؤلم . . . » واتخذ مظهراً مؤدباً شارداً ، على حين لم يبد على الأشقر الطويل أدنى تأثر . أما الفتى ذو العينين السوداوين فلم يكف عن التطلع إلى . قال لى :« أيضايقا أن نسير قليلا معا ! »

خطرت فى ذهنى عبارة مبتذلة سمعتها مرة على لسان أحد الأشقياء : « وقع الفحل ولا معين » فأجبت وأنا ألاحظ فى شى من الغبطة أن صوتى لا يرتجف : « كلا بالتأكيد كلا ! ولكنى أؤكد لك . . » فقال الفتى : « انى أصدقك يا دكتور . » ثم دعا الندل ، والآخران لا ينبسان ببنت شفة .

دفعنا ثمن مشروبنا ثم نهضت واقفاً . وكانت دهشتى كبيرة عند ما وجدت جارى لم يتحرك . بل تمتم بين أسنانه : « ابى استطيع اللحاق بك يا دكتور؟ أتريد أن يكون ذلك فى طريق راسباى بعد خمس دقائق ؟ ما عليك فى هذه الحالة إلا أن تصعد نحو دنفير ! » ثم تركنى أنصرف . تركنى أنصرف ! كان فى استطاعتى أن أتسلل خلسة إلى عمارة مجاورة وأن أختفى ! لو كنت ذكرت أسماء وعناوين زائفة لما كان فى إمكان أحد أن يعثر على ! اختفت

قشعريرة الرأس ، وخرجت من مقهى سان جرمان منشرحاً مبتهجاً كفتى فى مقتبل العمر ، وفى الوقت نفسه كانت مغامرتى قد استثارتنى ، فكان تعطشى شديداً إلى معرفة ما سيتبعها من أحداث . ومرت بى خواطر وتأملات جديرة بعالم نفسانى عن مقدار جاذبية الأسرار وحب المغامرة الذى يحتفظ به فى نفوسهم أكثر الرجال عقلا منذ سنى الطفولة : يكفى أمر تافه لكى يثيره من جديد . قطعت وأنا فى ذلك التفكير مائتين أو ثلاثة مائة متر عند ما سمعت صوتاً إلى جانبى : « أنت يا دكتور ؟ آه إن ذلك يسرنى . . . ! »

ومد إلى الفتى أسود العينين يده ، وعلى شفتيه ابتسامة مغتصبة قليلا . ومن غير أن ينتظر حتى أفيق من هذه الصدمة الصغيرة الجديدة ، أخذ يتكلم . قال لى إن مارسيل بومبيه كان من خيرة أصدقائه بالفعل . وقد أسف لموته خصوصاً أنهما عقدت أعمالها المشتركة . كانا قد تعاقدا على موعد اليوم لأن صديقاً لها مستخدماً فى محل تجارى مثلهما ، وهو هولندى ، وكان يعنى الأشقر الطويل الذى رأيته فى المقهى — قال إن صديقهما هذا كان سيصل إلى باريس فى الصباح وكان لا بد من وجود سكن له . لم يرغب فى الذهاب إلى الفندق مع ان كل أوراقه بالتأكيد مستوفاة . إلا أنه كان لا يريد أن يدخل فى علاقات مباشرة مع الألمان لوجود ما لست أدرى من صعوبات فى الترخيص لاستيراد بعض السلع . ومن الجلى أنه لم يكن يحب الألمان ، وبخاصة لأنه هولندى ؛ فالاحتلال هناك كان أقسى منه هنا . كان بومبيه سيحضر ومعه عنوان . ألم يذكر عنوانا قبل موته ؟ إنى رجل شهم كريم لأنى كابدت مشقة الحضور هذا اليوم ، وهو — أى الفتى — يطلعنى على ضميره لا يخفى علىّ شيئاً . ذلك ما قاله لى ، ولم يكن ما قاله إلا نسيجاً من الأكاذيب . يا لسيمون من شيطان بعينيه السوداوين ! إنى مدين له بأعنف ذكريات حياتى وهاندا لا أشعر بأية رغبة فى استعادتها . فقد مات هو أيضاً بدوره .

سأوجز إذن مع أن نهاية القصة أقوى تأثيراً من أولها ، ولكنها تشبه قصصاً كثيرة غيرها . وإنى ما زلت اسائل نفسى كيف بلغ بى الامر حتى عرضت شارع بريزن لاقامة الهولندى ! استصحبه سيمون إلى هناك بعد نصف الليل ، وكان ضيفى دائم السكوت جم الادب . وكان يخايل خادمى محتذياً

أن تقع عليه عينها ساعتين كل يوم ، لمدة خمسة أيام ، كانت خادمى بعدها من الذوق بحيث انقطعت عن العمل لتضع غلاماً ، فحل الهولندى محلها . كان ذلك « الهولندى » إنجليزيا قومندانا شابا ، أرسله مكتب الاستعلامات البريطانى فهبط بوساطة المظلات فى ليلة ١١ — ١٢ ، لكى يتصل بعدد كبير من شباكنا ومن بينها شبكة سيمون . وما بين غروب الشمس إقبال الليل كانت شقتى تشاهد سلسلة متصلة من أشخاص مجهولين يستصحبهم سيمون . وقد حاول مدة أن يستطرد فى خرافة التجارة والاستيراد ، ولكنى لم أستطع فى ليلة من الليالى أن أمسك نفسى عن الضحك ، فذكر لى كل شئ أو ما يكاد يكون كل شئ ، بما فى ذلك حقيقة جنسية الهولندى . ولما كنت أحسن قليلا لغة شكسبير ، فقد تركنا التفاهم بالاشارات . وفى أوقات فراغنا أخذت أعلمه الفرنسية . ورجونى أن أحضر المحادثات ثم أن أشترك فيها . وكانوا يعدّوننى مستشارا صالحا لهم . وإنى لم أشعر فى يوم من الأيام فى أى كشف من كشوفى العلمية بمثل الغبطة التى شعرت بها فى تلك الأشهر العجيبة . أقام القومندان أسبوعين ثم رحل إلى أجمة فى الجور ، وعملت منذ ذلك الوقت مع سيمون وحده ، لم يشأ مطلقا أن يتركنى أشترك فى عملياته ، ولم يكن بيننا موضوع شحار سوى ذلك . غير أنه لم يكن يعزم على شئ إلا استشارنى — وقد نفعت المخدرات فى مرات عدة . وكان قد أطلق على شبكتنا اسم « شبكة سومى » .

وعند ما كرمتنى السلطات بعد التحرير كان صغيرى سيمون هو الذى يجب أن يكرم لا أنا . لقد قتل فى طريق سان جرمان أثناء انسحاب الألمان ، على بعد قليل من المقهى . وقد أزحنا الستار عن لوحة من الرخام فى مكان آخر معركة له . ولما كان الأمر متصلا « بشبكة سومى » حرصت كلية الطب على أن تمثل فيه : فندبت الدكتور دومين . وهكذا تسير الأمور وقد عدت إلى بحوثى . وإنى سعيد بأن أعلن عن نشرها قريباً .

فيلييه سور موران ١٩٤٧ — **كلود أفلين**

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم